كتب

تَقرأ رواية الكاتب المصري واقعَ مصر بمفردات الماضي، فهي تدور عام 1964، زمن جمال عبد الناصر، غير أنّ القارئ يخرج منها باستنتاج عن الانهيارات التي أعقبت ثورة يناير 2011، وكأنّما الماضي والحاضر متوازيان، وكأنّما أحدهما صورةٌ عن الآخر

«الأشجار تمشي في الإسكندرية» لعلاء الأسواني

ما صنعته الدولة البوليسية في مصر

سومر شحادة

في تأويل رواية «الأشجار تمشي في الإسكندرية» للكاتب والروائي المصري علاء الأسواني (1956)، يختلط على القارئ زمنها، لأنّ الإحالات التي تخرج من عام 1964 إلى مصر المُعاصرة كثيرة، وتدفع القارئ إلى الاعتقاد بأنّه صعد آلة الزمن. الرواية عربة، تأخذه إلى بدايات تشكيل الدولة البوليسية.

لكن عندما يُطلّ من نافذة هذه العربة لن يجد نفسه حبيساً لزمن يُحدّده السرد في أعقاب ثورة عام 1952، وإنّما يشعر أنّه في الواقع الراهن متلوّثٌ بكلّ آفاته. إذ لم يبقَ من مشروع جمال عبد الناصر الوطني والتحرّري إلّا ما صنعته عقلية الصوت الواحد. والرواية قراءة مُعاصرة، وليست مجرّد وثيقة، بل إنّ فيها كشفاً راهناً لواقع الدولة التي يختفي مواطنوها في الشوارع ومن البيوت. الرواية الصادرة عن «دار هاشيت أنطوان/نوفل» تَقرأ واقعَ مصر بمفردات الماضي، قراءة لا تحمل التباساً. على العكس، لربّما مع إصرار النصّ على تصوير التجربة الناصرية الواسعة بصورة أحادية، يمكن أن يصل القارئ إلى استنتاج يفرضه على رواية الأسواني، استنتاج عن انهيارات مصرية أعقبت ثورة يناير 2011؛ وكأنّما الواقعان (الماضي والحاضر) متوازيان، وكأنّما أحدهما - مع تدخّل الروائي - صار صورةً عن الآخر.

منذ الصفحة الأولى، نعرف أنّ زمن الرواية هو عام 1964، ومكانها الإسكندرية، بالتحديد مطعمٌ فيها، يرتاده أرستقراطيون قدامى. فالثورة جعلت من عهدهم عهداً ماضياً، ومن تراثهم أطلالاً. والحكاية التي يعرضها الأسواني تحمل وجهةَ نظر هؤلاء الأرستقراطيّين بما قام به عبد الناصر ورفاقه. إلّا أنّ قولاً كهذا عن نصّ الأسواني يَحدّه، لأنّ الرواية ليست عن هؤلاء فقط؛ إنّما عمّا قاوم التساقط مع الزمن من تجربة عبد الناصر. إنّها عن الأسلوب الذي اتّبعته الدولة البوليسية لإنجاز التحوّل الثوري، والرواية سجلٌّ بارع لفهم الدولة التي تُحطّم وجود الفرد خارج الدور الذي تريده منه.

تخطر للقارئ، وهو يكتشف مع الأسواني تحوّلات المواطن المصري، الأدبيات الروسية التي رصدت الانقلابات الفكرية داخل الفرد والمجتمع، مثل رواية المسرحي والروائي الروسي ميخائيل بولغاكوف (1891 - 1940) «قلب كلب» التي تتحدّث عن تجربة علمية يُجريها طبيب، بنقل الغدّة النخامية لإنسان وزرعها في كلب. لكنّ الكلب يتحوّل إلى «رفيق» يؤذي الآخرين، يكتب تقارير عنهم، يتدخّل في غير اختصاصه، يعتدي على حدود غيره الشخصية والفكرية والاجتماعية.

وما منع جليل، شخصية الأسواني، من أن يصير نسخةً عن شخصية بولغاكوف، ليس ضعف الأيديولوجيا التي لم تعُد موجودة اليوم - ما يدفعني مجدّداً إلى الاعتقاد أنّ هذه الرواية نصُّ راهن، الماضي فيه مجرّد حيلة سردية لقول الحاضر - وإنّما ما منع التصاق الشخصيتين، هي تلك الصحوة التي للإنسان المصري الحضاري. إذ بعد أن اكتشف الخديعة التي وقع فيها، وقد جنّده بدوي خضر لسرقة معمل الشوكولا لصالحه، لا لخدمة مصر؛ كتبَ جليل رسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر يشرح له فيها ما يحدث من غير علم الرئيس، وهذا اعتقادٌ مؤكّد لمواطنين يؤمنون بصلاح الحاكم وسوئهم.

لكنّ الرواية لا تعرض فقط هذا التوجّه بصلاح الخليفة وسوء الرعية، إنّما تعرض عبر صفحاتها الـ438 توجّهات عديدة. الجميع فيها داخل حوار محتدم عن مصر، وعن الإسكندرية، بما كانت تمثّله من انفتاح على الثقافات الأوروبية. النصّ برمّته رهانٌ على تغيير حقيقي، ديمقراطي، ينبع من داخل قوى المجتمع.

الشخصية الفارقة التي يمنحها الروائي صوتاً مستقلاً هي الفنّان أنس الذي يُنجز معرضاً للبورتريه، ونتعرّف بمعونته على إسكندرية أكثر اتساعاً من تلك التي عرفناها في المطعم، ولو أنّ كلا العالمين، الأرستقراطي وعالم القاع، يقودان إلى حقائق أرادها النصّ لضبط السجلّ المسهب للدولة التي تقود بخيوط غير مرئية مصير مواطنيها. والاستعارة التي يقولها العنوان عن الأشجار التي تمشي في الإسكندرية هي قول زرقاء اليمامة «إنّي أرى الأشجار تمشي». حينها اعتقد قومها أنّها خرّفت، لم يصدّقوها، وكان الأعداء قد غطّوا أنفسهم بأغصان الأشجار، وهزموا قومها. تلك النبوءة بالهزيمة هامت على كلّ النصّ، وهي هزيمة الضمير الأخلاقي العامّ لصالح الضمير الوظيفي الذي فرضته الدولة، وهزيمة الأخلاق المتسامحة المدنية لصالح تلك التي أنتجها العسكر، ما جعل البشر وشاة، لا مواطنين أحراراً.

المفارقة هنا أنّ الدولة هي مَن تقوم بالعمل السرّي، كي توقع بالمواطنين. وهي مفارقة مريرة تُفسّر إلى حدّ بعيد كيف يصير انتقاد الحاكم انتقاداً للبلد كلّها، وكيف تلتصق صورة الحاكم بصورة الوطن، لأنّ الناس جميعهم مراقبون، لأنّ أحداً، لا تعرفه، سوف يشي بك. هكذا، يُصوّر الأسواني أعضاء النادي الذين يجتمعون في المطعم على أنّهم أقلّية من الغرباء المنبوذين الذين يعتقدون قدرتهم على العيش على هامش هيستريا جماعية تقدّس الرئيس، وتحتكر السياسة والاقتصاد والقيم. الرواية ترصد ذلك الاستيلاء العميم الذي يصيب الحياة، حيث القانون الوحيد هو إرادة السلطة.

معظم شخصيات الرواية مصريون من أصول أجنبية، أحبّوا مصر، وقرّروا البقاء فيها؛ مثل شانتال الفرنسية وتوني اليوناني وكارلو الإيطالي، وهؤلاء أنجزوا أعمالهم، وبنوا خياراتهم كلّها على أساس متين في داخلهم، وهو حُبّ مصر، إلّا أنّ ما يحدث على امتداد الصفحات سحلٌ علني ومفضوح لذلك الحُبّ الخالص للوطن؛ إذ استغلّتْ الدولة أصولهم الأوروبية كي تقول إنّهم جواسيس، وكي يعتقد جموع المصريّين أنّ الرئيس يحميهم. ذلك السحل المرير لحُبّ مصر ينتهي بصورة مريرة، بصورة قاسية ووحشية، وكأنّما ما تريده السلطة فقط هو الحق، والبشر لا يملكون سوى الرفض الذي يقترحه الفنّ.

رواية الأسواني تعبيرٌ قوي عن رفض الفنّان، وكأنّها صرخة أو استغاثة أو إعلانٌ عن نهب الحرية. وهي ليست استغاثة تخرج من كهف الماضي، كما يتبدّى لنا في البداية، إنّما هي استغاثة تخرج من حنجرة الحاضر.

في رصيد الأسواني عددٌ من الروايات الشهيرة، وهو ناجح بشكل لافت في بناء صلة قويّة مع القارئ؛ كما في رواياته «عمارة يعقوبيان» و«نادي السيارات» و«جهورية كأن»، وغيرها من الروايات. أسلوبه ممتع، كتابته شيّقة وجادّة، يستطيع بمهارة وخفّة أن يُمسك بالقارئ، ويشدّه إلى عالم يبنيه كمن يرسم لوحة، يُنجز عناصرها عنصراً بعد آخر من غير أن يرتبك قلمه. وهو غالباً ما يهتمّ بالقضايا السياسية والاجتماعية في روايات يُمكن أن تُشكّل تاريخاً حديثاً لمصر. لكنه تاريخٌ مقترن برؤية الأسواني الاجتماعية السياسية، لا بمصر كلها.

ويبقى أنّ أعماله، التي نجحت بين القرّاء نجاحاً أكيداً، مبنية على مركزية ما، أخالها مركزية الكاتب الذي يستخدم شخصياته، كي يعرض مقولته الأحادية. إنّه يرسم الشخصيات بإتقان ثمّ يلقي بها في إطار مضبوط ومحكم، وهو بهذا مثالٌ للكاتب المحترف - وهم قلّة في الكتابة العربية بصورة عامّة - إلّا أنّ هذا الاحتراف الفذّ والمثالي، لا يتيح للواقع أن يظهر بغناه كاملاً، وبفوضاه، ولا يظهر تعدّد الأصوات فيه إلّا بالحدّ الضروري لعقد الصلة مع الواقع. مع ذلك، يبقى علاء الأسواني الكاتب والسياسي والطبيب المصري علامةً فارقة في الكتابة العربية، لأنّه بمشروعه الجاد وصل إلى القارئ واختطفه، وهذه صعوبة قصوى هذه الأيام.

(روائي من سورية)

نصّ راهن، الماضي فيه مجرّد حيلة سردية لقول الحاضر

هزيمة الضمير الأخلاقي لصالح الضمير الوظيفي الذي فرضته الدولة

علاء الأسواني، 2007، (Getty)

بطاقة

«الأشجار تمشي في الإسكندرية» (2024) هي سادس رواية للكاتب وطبيب الأسنان والناشط المصري علاء الأسواني (مواليد القاهرة عام 1957)، بعد: «أوراق عصام عبد العاطي» (1990)، و«عمارة يعقوبيان» (2002)، و«شيكاجو» (2007)، و«نادي السيارات» (2013)، و«جمهورية كأنّ» (2018). أصدر الأسواني، أيضاً، ثلاث مجموعات قصصية: «الذي اقترب وراى» (1990)، و«جمعية منتظري الزعيم» (1998)، و«نيران صديقة» (2004)، وعشرة كتب في المقالة.

نظرة أولى

عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر»، صدر للباحث الأردني **محمد سليم بدرخان** البختي كتاب «نقود الإمارات والحكومات الكردية في العصور الإسلامية». يبحث العمل في النقود (الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية) التي جرى سكّها وإصدارها من قِبل سبع عشرة إمارة وحكومة كردية خلال العصور الإسلامية المختلفة، ظهرت نتيجة مباشرة لضعف الدولة العباسية وتلاشي سلطتها المركزية في الأطراف. يشتمل الكتاب على ستة عشر فصلًا يحتوي كلّ منها على مقدمة مختصرة عن كل إمارة، وقائمة حكّامها، إضافة إلى صور مسكوكاتها، والشرح المصاحب.

يتناول كتاب «أنغام من نور»، الصادر عن «دار كلمة»، لمؤلّفه **حسن زكي**، سيَر أربعة من كبار ملحّني الجيل الثاني في مصر، هُم: عبد العظيم عبد الحق، ومحمود الشريف، وأحمد صدقي، وعلي إسماعيل، حيث يستعرض جوانب من حياتهم الشخصية، وإبداعاتهم الموسيقية، بالإضافة إلى ممارسات بعضهم لفنون أُخرى، ممارسةً وصلت إلى حدّ الاحتراف؛ الأمر الذي ألقى بظلاله على موسيقاهم وجعلها في غاية التفرّد والمغايرة، وعزّز دورهم في الحياة الموسيقية المصرية والعربية، وذلك من خلال الألحان التي وضعوها لكبار مطربي جيلهم.

لا يتردّد المؤرخ الإسباني **إدواردو مانزانو**، في كتابه «إسبانيا المتنوّعة» الصادر عن دار نشر «كريتيكا»، في القول إنّ تاريخ إسبانيا هو تاريخ ماضٍ متغيّر ومتناقض ولا يمكن تبسيطه. لذلك يقترح في مواجهة القراءات السياسية والمعارك الأيديولوجية رحلة عاطفية لإعادة اكتشاف هذا الإرث في شكل فسيفساء من الهويات والثقافات والأقاليم واللغات والحضارات. من هسبانيا الرومانية إلى عرق جزر الهند، ومن الأندلس الإسلامية إلى التحوّل، ومن السفاراد اليهودي إلى توحيد البوربون، يعرض الكتاب مفاتيح التاريخ التعدّدي والاستفزازي والموثّق والمثير للسخرية.

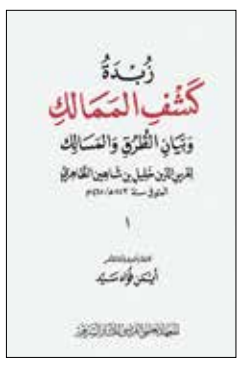

عن «المعهد الفرنسي للآثار الشرقية» في القاهرة، صدرت نسخة منقّحة من كتاب «زُبدة كشف المالِك وبيانِ الطرق والمسالك» للمؤرخ المملوكي **غرس الدين خليلِ شاهين الظاهري**. يوثّق الكتاب النظم والقرارات السلطانية لدولة المماليك في مصر، ويُبيّن أيضاً العديد من المسائل السياسية والدبلوماسية خلال القرن الخامس عشر، والنظم الإدارية الجديدة حينها والإصلاحات التي أدخلها الحكّام المماليك، خاصّة في الجيش في تلك المرحلة، بالاستناد إلى الوثائق الحكومية التي أتيح للمؤلّف الاطلاع عليها بحُكم تولّيه مناصب عليا مثل نيابة السلطنة والوزارة مرّات عدّة.

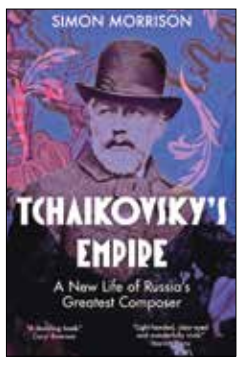

«إمبراطورية تشايكوفسكي.. حياة جديدة لأعظم ملحّن في روسيا» عنوان كتاب للباحث الموسيقي **سيمون موريسون**، صدر عن «منشورات جامعة ييل». يضع المؤلّف سيرة جديدة لبيوتر إيليتش تشايكوفسكي (1840 - 1893) تتناول موسيقاه وحياته الشخصية والسياسية، في محاولة لدحض الروايات المتواترة حوله باعتباره شخصية رومانسية بائسة ومكتئبة، إذ يوضّح كيف أصبح رمزاً للإمبراطورية الروسية، والملحّن الأكثر شعبية في بلده آنذاك، وأدواره داخل البلاط الإمبراطوري، ودعمه القيصرين ألكسندر الثاني والثالث، وإيمانه بالتعدّد الثقافي داخل روسيا خارج مفهوم المركزية.

عن «الآن ناشرون وموزعون»، صدر كتاب «ماذا بعد؟ قياس الأثر الاجتماعي وإدارته» للباحثة **خلود هندية**. يضيء الكتاب مفاهيم أساسية تتعلّق بالتنمية المستدامة وأهدافها العالمية وخطوات تأسيس استراتيجية الاستدامة، والميزة التنافسية لتبنّي نهج مستدام ضمن أعمال المؤسّسات، كما يُبيّن أسباب عدم التمكّن من تحقيق أهداف الاستدامة؛ ومنها عدم فهم وتحليل أثر البرامج والمشاريع على المجتمع والبيئة، والأبعاد الخمسة للأثر والمبادئ والمعايير العالمية لقياسه، وكيفية قياسه وإدارته، مع تقديم عدد من النماذج والأمثلة الواقعية والأخطاء الشائعة.

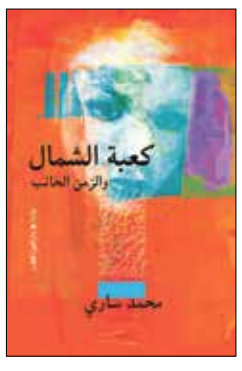

«كعبة الشمال والزمن الخائب» عنوان رواية للكاتب والمترجم الجزائري **محمد ساري**، صدرت عن «دار العين». يروي النصّ قصّة أسرة جزائرية تنتقل من مدينة مرسيليا في الجنوب الفرنسي إلى ليون في الشمال أملاً في الحصول على فرص جديدة، لكنّ أحلامها تنهار تحت وطأة التقاليد التي تركتها في بلدها. نقرأ من الغلاف: «سواء أكانت المرأة في حدود البلاد العربية أم تمكّنت من مغادرتها، طالما هي عربية الأصل، تظلّ الأشباح تطاردها وتُنهكها (...) تُحدّثنا الرواية عن كيف يكون الجميع ضحايا، حتى وإن بدوا قساةً لا تعرف قلوبهم الرحمة».

على خلاف السرديات السائدة للحداثة، سواء كانت اتصالية تعود إلى العصر الوسيط المتأخّر وحتى مطلعه، أو قطائعية تمتدّ إلى ما بعديّات شتّى، يبتكر كتاب «ذرية الحداثة المرعبون: في الحداثة تجريباً جينالوجيّاً مضادّاً»، الصادر عن «منشورات الجمل»، لمؤلّفه بيتر سلوترديك، وترجمة **ناجي العونلّي**، أسوة بحدس نيتشوي، سردية مغايرة للأزمنة الحديثة من حيث نشوءاتها وتشكّلاتها وتواتراتها الدفينة، حيث يكشف القدر الكبير من التهجين الذي أدّى إلى خلق كائنات مسيخة لا تستغل إلّا تخريباً لإمكان الاستخلاف والتوارث بين الأجيال، بحيث صار من الصعب التنبّؤ بأوان انخماده.